المبحث الأول: نماذج تطبيقية حول بعض حكم القرآن

- **المثال 01:** أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

ابن كثير:

يقول تعالى : كيف يليق بكم – يا معشر أهل الكتاب ، وأنتم تأمرون الناس بالبر ، وهو جماع الخير – أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب ، وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ؛ فتنتبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم . وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة في قوله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه ، وبالبر ، ويخالفون ، فعيرهم الله ، عز وجل . وكذلك قال السدي.

وقال ابن جريج : (أتأمرون الناس بالبر) أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس ، فعيرهم الله بذلك ، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وتنسون أنفسكم) أي : تتركون أنفسكم (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) أي : تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة ، وتتركون أنفسكم ، أي : وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقضون ميثاقي ، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

وقال الضحاك ، عن ابن عباس في هذه الآية ، يقول : أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة ، وتنسون أنفسكم.

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثني علي بن الحسن ، حدثنا مسلم الجرمي ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن أيوب السختياني ، عن أبي قلابة في قول الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) قال : قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية : هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق ، فقال الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون).

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف [معروف] وهو واجب على العالم ، ولكن [الواجب و] الأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به ، ولا يتخلف عنهم ، كما قال شعيب ، عليه السلام : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) [هود : 88] . فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب ، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف . وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها ، وهذا ضعيف ، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية ؛ فإنه لا حجة لهم فيها . والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف ، وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، [قال مالك عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبير يقول له : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . وقال مالك : وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء ؟ قلت] ولكنه – والحالة هذه – مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية ، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة ، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك ، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي المعمري ، قالا حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا علي بن سليمان الكلبي ، حدثنا الأعمش ، عن أبي تميمة الهجيمي ، عن جندب بن عبد الله – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه.

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا وكيع ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد هو ابن جدعان ، عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مررت ليلة أسري بي على قوم شفاههم تقرض بمقاريض من نار . قال : قلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟.

ورواه عبد بن حميد في مسنده ، وتفسيره ، عن الحسن بن موسى ، عن حماد بن سلمة به.

ورواه ابن مردويه في تفسيره ، من حديث يونس بن محمد المؤدب ، والحجاج بن منهال ، كلاهما عن حماد بن سلمة ، به.

وكذا رواه يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة به.

ثم قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري ببلخ ، حدثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن قيس ، عن علي بن زيد عن ثمامة ، عن أنس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه – أيضا – من حديث هشام الدستوائي ، عن المغيرة – يعني ابن حبيب – ختن مالك بن دينار ، عن مالك بن دينار ، عن ثمامة ، عن أنس بن مالك ، قال : لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقوم تقرض شفاههم ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ؛ أفلا يعقلون ؟.

حديث آخر: قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي وائل ، قال : قيل لأسامة – وأنا رديفه – : ألا تكلم عثمان ؟ فقال : إنكم ترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم . إني لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمرا – لا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس . وإن كان علي أميرا – بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق به أقتابه ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ،

فيطيف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه.

ورواه البخاري ومسلم ، من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، به نحوه.

(وقال أحمد : حدثنا سيار بن حاتم ، حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء . وقد ورد في بعض الآثار : أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ، ليس من يعلم كمن لا يعلم . وقال تعالى : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) [الزمر : 9] . وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل رواه من حديث الطبراني عن أحمد بن يحيى بن حيان الرقي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الداهري عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره).

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : إنه جاءه رجل ، فقال : يا ابن عباس ، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أوبلغت ذلك ؟ قال : أرجو . قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل . قال : وما هن ؟ قال : قوله عز وجل : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) أحكمت هذه ؟ قال : لا . قال : فالحرف الثاني . قال : قوله تعالى : (لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [الصف : 2 ، 3] أحكمت هذه ؟ قال : لا . قال : فالحرف الثالث . قال : قول العبد الصالح شعيب ، عليه السلام : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) [هود : 88] أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا . قال : فابدأ بنفسك.

رواه ابن مردويه في تفسيره.

وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد ، حدثنا زيد بن الحريش ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوام بن حوشب ، عن [سعيد بن] المسيب بن رافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال ، أو دعا إليه.

إسناده فيه ضعف ، وقال إبراهيم النخعي : إني لأكره القصص لثلاث آيات ؛ قوله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [الصف : 2 ، 3] وقوله إخبارا عن شعيب : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) [هود : 88. [

وما أحسن ما قال مسلم بن عمرو:

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد لو كان في تزهيده صادقا

أضحى وأمسى بيته المسجد إن رفض الناس فما باله

يستفتح الناس ويسترقد الرزق مقسوم على من ترى

يسقى له الأبيض والأسود

وقال بعضهم : جلس أبو عثمان الحيري الزاهد يوما على مجلس التذكير فأطال السكوت ، ثم أنشأ يقول:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي والطبيب مريض

قال : فضج الناس بالبكاء . وقال أبو العتاهية الشاعر:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى بالقول منك وينفع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ قال : دعوت الله أن يريني رفيقي في الجنة ، فقيل لي في المنام : هي امرأة في الكوفة يقال لها : ميمونة السوداء ، فقصدت الكوفة لأراها . فقيل لي : هي ترعى غنما بواد هناك ، فجئت إليها فإذا هي قائمة تصلي والغنم ترعى حولها وبينهن الذئاب لا ينفرن منه ، ولا يسطو الذئاب عليهن . فلما سلمت قالت : يا ابن زيد ، ليس الموعد هنا إنما الموعد ثم ، فسألتها عن شأن الذئاب والغنم . فقالت : إني أصلحت ما بيني وبين سيدي فأصلح ما بين الذئاب والغنم . فقلت لها : عظيني . فقالت : يا عجبا من واعظ يوعظ ، ثم قالت : يا ابن زيد ، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها ، يا ابن زيد ، إنه بلغني ما من عبد أعطى من الدنيا شيئا فابتغى إليه تائبا إلا سلبه الله حب الخلوة وبدله بعد القرب البعد وبعد الأنس الوحشة ثم أنشأت تقول:

يا واعظا قام لاحتساب يزجر قوما عن الذنوب تنهى وأنت السقيم حقا هذا من المنكر العجيب تنهى عن الغي والتمادي وأنت في النهي كالمريب لو كنت أصلحت قبل هذا غيك أو تبت من قريب كان لما قلت يا حبيبي موضع صدق من القلوب

الطبري: قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى البر الذي كان المخاطبون بهذه الآية يأمرون الناس به وينسون أنفسهم، بعد إجماع جميعهم على أن كل طاعة لله فهي تسمى " برا ". فروي عن ابن عباس ما-:

- حدثنا به ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهدة من التوراة، وتتركون أنفسكم: أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.
- وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: (أتأمرون الناس بالبر) يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة، وتنسون أنفسكم.

وقال آخرون بما-:

- حدثني به موسى بن هارون، قال: حدثني عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) قال: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وهم يعصونه.
- وحدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون، فعيرهم الله.
- وحدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا الحجاج، قال: قال ابن جريج: (أتأمرون الناس بالبر) أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فعيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وقال آخرون بما-:

- حدثني به يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق. فقال الله لهم: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) (97).
- وحدثني علي بن الحسن، قال: حدثنا مسلم الجَرْمي، قال: حدثنا مخلد بن الحسين، عن أيوب السختياني، عن أبي قلابة، في قول الله:(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا.

قال أبو جعفر: وجميع الذي قال في تأويل هذه الآية من ذكرنا قوله متقارب المعنى؛ لأنهم وإن اختلفوا في صفة " البر " الذي كان القوم يأمرون به غيرهم، الذين وصفهم الله بما وصفهم به، فهم متفقون في أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أو العمل، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم.

فالتأويل الذي يدل على صحته ظاهر التلاوة إذا: أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم؟ معيرهم بذلك، ومقبحا إليهم ما أتوا به.

ومعنى " نسيانهم أنفسهم " في هذا الموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ [التوبة: 67] بمعنى: تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه.

القول في تأويل قوله تعالى وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ

قال أبو جعفر: يعني بقوله: (تتلون) : تدرسون وتقرءون. كما-:

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك عن ابن عباس: (وأنتم تتلون الكتاب)، يقول: تدرسون الكتاب بذلك. ويعني بالكتاب: التوراة.

القول في تأويل قوله تعالى أَفَلا تَعْقِلُونَ (44).

- قال أبو جعفر: يعني بقوله: (أفلا تعقلون) أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم التي تأمرون الناس بخلافها وتنهونهم عن ركوبها وأنتم راكبوها، وأنتم تعلمون أن الذي عليكم من حق الله وطاعته، واتباع محمد والإيمان به وبما جاء به، مثل الذي على من تأمرونه باتباعه. كما:
- حدثنا به محمد بن العلاء، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق عن الضحاك، عن ابن عباس: (أفلا تعقلون)يقول: أفلا تفهمون؟ فنهاهم عن هذا الخلق القبيح.

قال أبو جعفر: وهذا يدل على صحة ما قلنا من أمر أحبار يهود بني إسرائيل غيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم كانوا يقولون: هو مبعوث إلى غيرنا! كما ذكرنا قبل.

المثال 02:- وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ البقرة (179)

ابن كثير:

وقوله : (ولكم في القصاص حياة) يقول تعالى : وفي شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة لكم ، وهي بقاء المهج وصونها ؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة النفوس . وفي الكتب المتقدمة : القتل أنفى للقتل . فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح ، وأبلغ ، وأوجز.

(ولكم في القصاص حياة) قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل ، فتمنعه مخافة أن يقتل.

وكذا روي عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبي مالك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ، (يا أولي الألباب لعلكم تتقون) يقول : يا أولي العقول والأفهام والنهى ، لعلكم تتزجرون فتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى : اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

الطبري:

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: " ولكم في القصَاص حَياةٌ يا أولي الألباب "، ولكم يا أولي العقول، فيما فرضتُ عليكم وأوجبتُ لبعضكم على بعض، من القصاص في النفوس والجراح والشجاج، مَا مَنع به بعضكم من قتل بعض، وقَدَع بعضكم عن بعض، فحييتم بذلك، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة.

واختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم في ذلك نحو الذي قلنا فيه.

*ذكر من قال ذلك:

- حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: " ولكم في القصَاص حياةٌ يا أولي الألباب " قال، نكالٌ، تَناهٍ.
- حدثنا أبو كريب قال، حدثنا ابن أبي زائدة، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: " ولكم في القصاص حياة " قال، نكالٌ، تَناهٍ.
- حدثني المثنى قال: حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله.
- حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة: " ولكم في القصاص حياة "، جعل الله هذا القصاص حياة، ونكالا وعظةً لأهل السفه والجهل من الناس. وكم من رجل قد هَمّ بداهية، لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حَجز بالقصاص بعضهم عن بعض؛ وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهي الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله أعلم بالذي يُصلح خَلقه.
- حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " قال، قد جعل الله في القصاص حياة، إذا ذكره الظالم المتعدي كفّ عن القتل.
- حدثت عن عمار بن الحسن قال، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع قوله: " ولكم في القصاص حياة " الآية، يقول: جعل الله هذا القصاص حياة وعبرة لكم. كم من رجل قد هَمّ بداهية فمنعه مخافة القصاص أن يقع بها! وإن الله قد حجز عباده بعضهم عن بعض بالقصاص.
- حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد قوله: " ولكم في القصاص حياة " قال، نكالٌ، تناهٍ. قال ابن جريج: حَياةٌ. مَنعةٌ.
- حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: " ولكم في القصاص حياة " قال، حياةٌ، بقية. إذا خاف هذا أن يُقتل بي كفّ عني، لعله يكون عدوًّا لي يريد قتلي، فيذكر أن يُقْتَل في القصاص، فيخشى أن يقتل بي، فيكفَّ بالقصاص الذي خافَ أن يقتل، لولا ذلك قتل هذا.

- حدثت عن يعلى بن عبيد قال، حدثنا إسماعيل، عن أبي صالح في قوله: " ولكم في القصاص حياة " قال، بقاء.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولكم في القصاص من القاتل بقاء لغيره، لأنه لا يقتل بالمقتول غيرُ قاتله في حكم الله. وكانوا في الجاهلية يقتلون بالأنثى الذكر، وبالعبد الحرّ.

*ذكر من قال ذلك:

- حدثني موسى بن هارون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال، حدثنا أسباط، عن السدي: " ولكم في القصاص حياة "، يقول: بقاء، لا يقتل إلا القاتل بجنايته.

* * *

وأما تأويل قوله: " يا أولي الألباب "، فإنه: يا أولي العقول." والألباب " جمع " اللب "، و " اللب " العقل.

وخص الله تعالى ذكره بالخطاب أهلَ العقول، لأنهم هم الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه، ويتدبّرون آياته وحججه دونَ غيرهم.

القول في تأويل قوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

قال أبو جعفر: وتأويل قوله: " لعلكم تتقون "، أي تتقون القصاص، فتنتَهون عن القتل، كما-:

- حدثني به يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: " لعلكم تتقون " قال، لعلك تَتقي أن تقتله، فتقتل به.

المثال 03:-واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ آل عمران(103)

ابن كثير:

وقوله : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) قيل (بحبل الله) أي : بعهد الله ، كما قال في الآية بعدها : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) [آل عمران : أي بعهد وذمة وقيل : (بحبل من الله) يعني : القرآن ، كما في حديث الحارث الأعور ، عن علي مرفوعا في صفة القرآن : " هو حبل الله المتين ، وصراطه المستقيم. "

وقد ورد في ذلك حديث خاص بهذا المعنى ، فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبري : حدثنا سعيد بن يحيى الأموي ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي ، عن عطية عن [أبي] سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كتاب الله ، هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض. "

وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه. "

وروي من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك . [وقال وكيع : حدثنا الأعمش عن أبي وائل قال : قال عبد الله : إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين ، يا عبد الله ، بهذا الطريق هلم إلى الطريق ، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن. [

وقوله : (ولا تفرقوا) أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة ، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال. "

وقد ضمنت لهم العصمة ، عند اتفاقهم ، من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضا ، وخيف عليهم الافتراق ، والاختلاف ، وقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار ، وهم الذين على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وقوله : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا [وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها]) إلى آخر الآية ، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن ، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى ، قال الله تعالى : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم[إنه عزيز حكيم]) [الأنفال : 62] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم ، فأبعدهم الله منها : أن هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم لما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله ، فخطبهم فقال : يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ " كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وذلك أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض ، وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم ، وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول : " أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ " وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا ، وألقوا السلاح ، رضي الله عنهم وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا في قضية الإفك . والله أعلم.

الطبري:

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وتعلقوا بأسباب الله جميعًا. يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عَهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله.

وقد دللنا فيما مضى قبلُ على معنى " الاعتصام "

وأما " الحبل "، فإنه السبب الذي يوصَل به إلى البُغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان " حبلا "، لأنه سبب يُوصَل به إلى زوال الخوف، والنجاة من الجزَع والذّعر، ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

وَإذَا تُجَوِّزُهَا حِبَالُ قَبِيلَةٍ

أَخَذَتْ مِنَ الأُخْرَى إلَيْكَ حِبَالَها

ومنه قول الله عز وجل: إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ (سورة آل عمران: 112)

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

*ذكر من قال ذلك:

- حدثني يعقوب بن إبراهيم قال، حدثنا هشيم قال، أخبرنا العوّام، عن الشعبي، عن عبد الله بن مسعود أنه قال في قوله: " واعتصموا بحبل الله جميعا "، قال: الجماعة.
- حدثنا المثني قال، حدثنا عمرو بن عون قال، حدثنا هشيم، عن العوّام، عن الشعبي، عن عبد الله في قوله: " واعتصموا بحبل الله جميعًا "، قال: حبلُ الله، الجماعة.

وقال آخرون: عنى بذلك القرآنَ والعهدَ الذي عَهِدَ فيه.

*ذكر من قال ذلك:

- حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: " واعتصموا بحبل الله جميعًا "، حبل الله المتين الذي أمر أن يُعتصم به: هذا القرآن.
- حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: " واعتصموا بحبل الله جميعًا " قال: بعهد الله وأمره.
- حدثنا ابن حميد قال، حدثنا جرير، عن منصور، عن شقيق، عن عبد الله قال: إن الصراط مُحْتَضَر تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله، هلمّ هذا الطريق! ليصدّوا عن سبيل الله،. فاعتصموا بحبل الله، فإن حبلَ الله هو كتاب الله.

- حدثنا محمد قال، حدثنا أحمد بن المفضل، عن أسباط، عن السدي: " واعتصموا بحبل الله جميعًا "، أما " حبل الله "، فكتاب الله.
- حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم، عن عيسي، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: " بحبل الله "، بعهد الله.
- حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن عطاء: " بحبل الله "، قال: العهد.
- حدثنا أبو كريب قال، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل ، عن عبد الله: " واعتصموا بحبل الله " قال: حبلُ الله: القرآن.
- حدثني المثني قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا أبو زهير، عن جويبر، عن الضحاك في قوله: " واعتصموا بحبل الله جميعًا "، قال: القرآن.
- حدثنا سعيد بن يحيى قال: حدثنا أسباط بن محمد، عن عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كتاب الله، هو حبل الله الممدودُ من السماء إلى الأرض.

وقال آخرون: بل ذلك هو إخلاص التوحيد لله.

*ذكر من قال ذلك:

- حدثني المثني قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله : " واعتصموا بحبل الله جميعا "، يقول: اعتصموا بالإخلاص لله وحده.
- حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: " واعتصموا بحبل الله جميعًا "، قال: الحبل، الإسلام. وقرأ وَلا تَفَرَّقُوا.

القول في تأويل قوله عز وجل : وَلا تَفَرَّقُوا

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: " ولا تفرقوا "، ولا تتفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه، من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى أمره. كما-:

- حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: " ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم "، إنّ الله عز وجل قد كره لكم الفُرْقة، وقدّم إليكم فيها، وحذّركموها، ونهاكم عنها، ورضي لكم السمعَ والطاعة والألفة والجماعة، فارضوا لأنفسكم ما رضى الله لكم إن استطعتم، ولا قوّة إلا بالله.
- حدثني المثني قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، عن أبى العالية: " ولا تفرّقوا "، لا تعادَوْا عليه، يقول: على الإخلاص لله، وكونوا عليه إخوانًا.
- حدثني المثني قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية بن صالح: أن الأوزاعي حدثه، أنّ يزيد الرقاشي حدّثه أنه سمع أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّ بني إسرائيل افترقت على إحدى وسَبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة. قال: فقيل: يا رسول الله، وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يَدَه وقال: الجماعة " ،" واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا ".
- حدثني عبد الكريم بن أبي عمير قال، حدثنا الوليد بن مسلم قال، سمعت الأوزاعي يحدث، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.
- حدثنا أبو كريب قال، حدثنا المحاربي، عن ابن أبي خالد، عن الشعبي، عن ثابت بن قُطْبَة المدنيّ، عن عبد الله: أنه قال: " يا أيها الناس، عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمرَ به، وإنّ ما تكرهون في الجماعة والطاعة، هو خيرٌ مما تستحبون في الفرقة ".
- حدثنا عبد الحميد بن بيان السكريّ قال، أخبرنا محمد بن يزيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن ثابت بن قطبَة قال: سمعت ابن مسعود وهو يخطب وهو يقول: يا أيها الناس ، ثم ذكر نحوه.
- حدثنا إسماعيل بن حفص الأبُلِّيُّ قال، حدثنا عبد الله بن نمير أبو هشام قال، حدثنا مجالد بن سعيد، عن عامر، عن ثابت بن قطبة المدني قال: قال عبد الله: عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمرَ به، ثم ذكر نحوه.

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية عن بعض الأمثال في القرآن الكريم

المثال 01:- قال تعالى :-

مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.[1]

أ- **المعنى العام** :- لقد صور السياق القرآني في الآية الكريمة فضل النفقة في سبيل الله أو في وجوه البر والخير من الواجب والنفل، وما تضفيه تلك الصدقة من خير ونماء على صاحبها في حياته العاجلة أو في آخرته الآجلة .

وقد نقلت الآية الكريمة المعنى الذهبي المجرد إلى صورة حية وواقع مشاهد ملموس ألا وهو البذل والعطاء -ذلك الشيء العزيز على النفس فعله- لولا وجود هذه الصورة الجميلة له في القرآن .

ولِم لَا ؟ وهو في ظاهره نقص وفي باطنه نماء وزيادة ؟. تماما كالحبة التي يغرس الزارع فما تلبث أن تنبت عوداً يحمل سبع سنابل وفي كل سنبلة منها مائة حبة.[2]

نعم إن ذلك هوا فعل الله في خلقه من النبات فلم لا يكون منه الفعل نفسه - سبحانه- للمنفق الباذل نفسه وماله في سبيله عز وجل؟.

لاشك في أن هذا يرتبط في بمشيئته - سبحانه وتعالى- الذي يضاعف الرزق كما يريد لسعة عطائه ولعلمه بنوايا المنفقين ومدى إخلاصهم في تلك النفقة.[3]

ب- مناسبته في السياق:-

بالنظر إلى الآيات السابقة لهذا المثل ، نرى كيف تحدث عن المار على القرية وقصة

إبراهيم υ[4] وكانتا اكبر دليل على البعث

1 سورة البقرة: 261.
2 في ظلال القرآن 306/1 بتصرف.
3 نفسه وكذلك إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم 257/1 بتصرف.
4 سورة البقرة 259-260.

نقول لما تحدثت الآيات السابقات عن ذلك كان من المناسب أن يذكر في السياق بعد ما يمكن أن ينتفع به في ذلك اليوم الموعود وما يجد جزاءه هناك. وهو الإنفاق في سبيل الله إذ يكون الجزاء مضاعفا لصاحبه أضعاف كثيرا لا يعلم حدها سوى الله سبحانه وتعالى وذلك لأن المال عماد الأعمال المادية ولأن إنفاق المال في مجال الجهاد بخاصة صنو الجهاد بالنفس فقد جاء من قبل[5] قصة الذين خرجوا من ديراهم وهم ألوف حذر الموت، ثم أعقبت بقوله تعالى :-

" **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** "[6] وكما أعقب بعد ذلك[7]

- قتل داود جالوت وقوله : **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا)**.[8]

أعقب ذلك بقوله تعالى :- **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ...)** ... الخ[9]

كذلك في ذكر الحبة هنا أيضا إشارة إلى البعث وعظيم القدرة الإلهية لأن القادر على إخراج سامق من حبة تتفرع هذه الساق إلى سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة كما هوا مشاهد على الحقيقة في بعض البذور كالدخن والقمح وغيرها[10]

نقول لأن القادر على ذلك لا شك أنه قادر على البعث والإحياء لجامع الاشتراك بيناهم في التغذية والنمو[11] وقيل أن المناسبة في ذلك أنه لمذاكر -سبحانه- المبدأ والمعاد ودلائل صحتها أتبع ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف فبدأ بإنفاق الأموال في سبيل الله وأمعن في ذلك، ثم انتقل إلى كيفية تحصيل الأموال بالوجه المشروع ولما أجمل في ذكر التضعيف - سبحانه - بقوله (أضعافا كثيرا) وأطلق في قوله :-

" **أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ** ".[12]

---

5 سورة البقرة 243.
6 سورة البقرة 245.
7 سورة البقرة 253.
8 سورة البقرة 253.
9 سورة البقرة 254.
10 الجامع الأحكام القرآن1112/2 بتصرف.
11 روح المعاني 33/3 بتصرف.
12 سورة البقرة 254.

فصل في هذه الآية وقيد يذكر المشبه وما بين الآيات من دلالة على الإحياء وإلا أماته فلولا ذلك لم يحسن التكليف كما ذكر.[13]

هذا من جانب مناسبة المثل للآيات السابقة ، أما مناسبته لما بعده فهي ظاهرة واضحة ...إذ استمر السياق الطاهر بعد ذلك في تأييد هذا ببسطه وتوضيحه وزيادة الترغيب فيه بتعضيده بالأمثلة الأخرى التي تزيد المعنى وضوحا وجلاء ولم لا؟ . والآيات التاليات[14] تدعو بل تحث على إخلاص نية الإنفاق في لله – سبحانه وتعالى– على أن لا يتبع هذا الإنفاق منٌ ولا أذى ثم نهى عن ذلك الفعل القبيح بضرب مثل آخر له [15] ثم الترغيب في هذا بضرب مثل ثالث لمن يفعل ابتغاء مغفرة الله ورضوانه.[16]

ثم تقرير ذلك والتأكيد عليه بدعة خالصة إلى النفقة من أحسن ما يملك الإنسان ويكسبه لما يعود من ذلك الإنفاق على صاحبه من الخير الكثير ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى شيء من ذلك فهوا غني على العالمين جميعا ثم تواصل الآيات – بعد ذلك– الحديث عن هذه النفقة ، فمنها الصدقة ومنها النذر ومنها الظاهر ومنها الخفي وكلها تؤدي إلى نتيجة واحدة هي مصلحة المنفق وزيادة نماء ما أنفق منه – لأن الله سبحانه وتعالى– عالم بالظاهر منها والخفي والخلص لوجهه الكريم أو غير الخالص ، إذ يعيد لكل ذي حق حقه مع الزيادة المعلومة عنده ––سبحانه– فهل من ترابط في المعنى أجمل و أعجب من هذا ؟!.[17]

ج– العبرة منه:–

إن العبرة من هذا المثل تتجلى في كيفية عرض المعنى الذي تناوله السياق ، فكما نعلم أن الآية تعرض لموضوع الإنفاق – وهو أمر عزيز على النفس سواء كان ذلك بالمال أو بالروح .. وليحصل الترغيب فيه عرضت الآية الكريمة المعنى بطريقة تصورية جميلة تبدو فيها الزيادة والنماء على أحسن وجه وأظهره

13 البحر المحيط 303/2 بتصرف.
14 سورة البقرة 262-263 بتصرف.
15 سورة البقرة 264 بتصرف.
16 سورة البقرة 265 بتصرف.
17 سورة البقرة من 266-274 بتصرف.

بل إن للطريقة التشويقية الجميلة التي عرض بها ذلك المعنى أثرها الكبير على السامع والقارئ مما يدعو إلى المبادرة والإقبال المطلوب بدل عن الإحجام عنه والفرار منه ، خاصة إذا علمنا أن هذه الآية الكريمة (نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. إن رسول الله ρ، لما حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال يا رسول الله كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي أربعة آلاف أقرضتها لربي فقال رسول الله ρ بارك الله لك فيما أمسك وفيما أعطيت ، وقال عثمان، يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له ، فنزلت هذه الآية فيها ، وقيل : نزلت في نفقة التطوع، وقيل نزلت قبل آية الزكاة ثم نسخت بآية الزكاة).[18]

ونرى هنا أنه لا حاجة إلى دعوى النسخ لأن الإنفاق في سبيل الله مطلوب في أي وقت وسبل الله كثيرا .[19]

أما الجانب الآخر من العبرة في هذا المثل – وهوا ما نراه أكثر أهمية فهوا أن على الداعي أن يدعو إلى ما يريد من خير بكل ما أوتي من وسائل الإقناع أو طرق الترغيب وتقريب المعنى وتوضيحه على أن يكون ذلك بالحكمة والتروي بأكثر من الوعظ المباشر والترهيب الذين قد يؤديانً أحياناً إلى النفور عن تلك الدعوة وحسبنا هنا أن يكون القرآن لنا مثلا ودليلا على ذلك ، فقبل أن يكون التكليف فيه يبدأ الحض والتأليف واستجاشة المشاعر والانفعالات الحية في الكيان البشري كله وعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية الواهبة تلك هي الزرع إن كان في تربة صالحة – أعطى أضعاف ما يأخذ وتكون غلاته أضعاف بذوره – ..... وهكذا.... يعرض تلك الصور للترغيب فيما يدعو إليه وهوا النفقة في سبيل الله.[20]

فهل لنا أفضل وأجل من القرآن الكريم مثلا وهاديا ومعلما؟!.

18 الجامع لأحكام القرآن 1111/2 .
19 نفسه 1111/2. بتصرف.
20 في ظلال القرآن 306/1 بتصرف.

المثال 02:- قال تعالى :-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).[21] صدق الله العظيم.

أ- المعنى العام:-

بعد أن وضحت الآيات السابقات[22] كيف تربو الصدق وتتضاعف - إذا كانت خالصة لوجهه تعالى سبحانه ، يأتي النهي هنا تصريحا عن تلك المغالطة الواضحة التي قد يتستروا وراءها المرائي في يخرج ما يخرج من مال أو أي صدقة كانت متخفية بثوب الخداعة والمرآة التي يظن أنه قد ستر عن عباد الله تعالى ما خفية من أمره، ولكن هيهات أن يكون له ما أراد لفضيحة سلوكه له ، فهو دائم الحسن غير منقطع عن أذى المتصدق عليه، وسواء كان ذلك المن مصرا أو ملمحا ، فكلاهما يؤدي إلى نهاية واحدة هي كسر نفس الفقير والتحقير من شأنه بينه وبين نفسه أو في حضرة الآخرين.

ومادام الأمر كذلك فلبدا أن تكون المخاطبة صريحة واضحة للمؤمنين مهملة من عداهم لأن الإيمان يمنع صاحبه من ارتكاب الرذائل، ولا شك أن المن رذيلة سيئة ينبغي التنبه لها ومراعاة البعد عنها لما قد تسببه لصاحبها من زوال فائدة تلك الصدقة التي ضن أنها ستعود عله في آخرته بالثواب الجزيل والخير الوفير، وما هي ذلك ، نعم لقد أذهب المانٌ حقه في الدنيا والآخرة،

أما في الدنيا : فقد أتعس صاحبه بما أعطاه من مال بسبب منٌه عليه، وبهذا خرجت الصدقة عن هدفها الأول وهوا إسعاد الفقراء والمحتاجين وأما في آخرته فقد منع أجر تلك الصدقة الممنونة.

21 سورة البقرة 264.
22 سورة البقرة 262.261.

(قال جمهور العلماء في هذه الآية : إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنٌ أو يؤذي بها فإنها لا تقبل وقيل : بل قد جعل الله للملك عليها أمارة فهوا لا يكتبها وهذا حسن).[23]

وقال أبو بكر الوراق :

أحسن من كل حسن *** في كل وقت وزمن.

صنيعة مربوبة *** خالية من المنن.[24]

وقد ذكر الرازي في تفسيره الكبير في الآية :-

(لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ) أنه يتحمل أمرين :-

أحدهما: أن ينويا بالصدقة الرياء والسمع، فتكون هذه الصدقة حين وجدت حصلت باطلة.

ثانيهما: أن يكون المراد بالإبطال أن يؤتى بها على وجهٍ يوجب الثواب ثم تتبع بالمنٌ والأذى ، فيزلا ما يترتب من الثواب والأجر[25]

ويذكر القرآن لذلك مثلين ليسايرا المعنى المذكور وليتبناهما.

أولهما: قوله تعالى:- **(كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ).**

ثانيهما: قوله تعالى:-

(كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).[26]

أما من ناحية مسايرة المثل الأول للمعنى وتثبيته له، فمن المعلوم أن المراد من كون عمل المرائي بطلا أنه دخل في الوجود باطلا من أساسه وليس صحيحا ثم أبطل أو الذي منع صحته أساسا اقترانه بالكفر.[27]

---

23 الجامع لأحكام القرآن 1119/2.
24 نفسه.
25 التفسير الكبير 25/7 بتصرف.
26 سورة البقرة 264.
27 التفسير الكبير 52/7 بتصرف.

وأما المثل الثاني وهوا الحجر الصلد الأملس الذي وقع عليه تراب ثم أصابه وابل فأزاله، فيرى الرازي أنه المشبه بذلك هوا صدور هذا العمل الذي لولا كونه مقروناً بالنية الفاسدة لكان موجبا لحصول الأجر والثواب فالشبه بالتراب الواقع على الصفوان هوا ذلك العمل الصادر منه.[28]

ونذهب هنا إلى هذا الرأي، لان التراب إذا وقع على الصخر لم يكن ملتصقا به بل يبدو كذلك وكون اتصاله كانفصاله تماماً، وكذا الصدقة المقترن بالمنّ والأذى تبدو من أعمال البر ومكسبه للثواب وهي ليست في ذلك من شيء بل يأتي يوم القيامة على ذلك العمل الممنون فيظهر حقيقته ولا ينال صاحبه منه شيئاً ، وكيف ينال شيئاً من ثوابه وقد امتزجت نية صاحبه بالمرآة أثناء أدائه؟ :

ب- مناسبته في السياق:-

لما رغبت الآيات السابقات[29] في الصدقة، وبينت فضلها ومدى زيادتها وتضعيف الله لها كيفما يشاء، وذلك لعلمه بنية المنفق، وبعد أن أظهرت الآية التالية كيف أن الإنفاق الخالص لله -سبحانه وتعالى- تكون نتيجة الطمأنينة والأمان وسعادة الدارين و أن غير ذلك لا قيمة له ولا اعتبار ، بل إن الكلمة الطيبة والمعاملة خير من صدقة يتبعها منٌ أو أذى .... بعد ذلك التمهيد الواضح للأمر الرباني الآتي بعد ، كان لا بد أن يصدر الأمر صريحا والنهى واضحا حتى لا تكون هناك حجة لمن لا يعمل بما أمر، وجاء النبي للمؤمنين خاصة إذ قال تعالى:-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ) ...الخ . لأن الإيمان مانع كاف لدفع أي رذيلة مهما دنت فكيف بالمنٌ أو الرياء والأذى ؟!

هذا من جانب مناسبة المثل لمقابله من آيات ، أما من جهة مناسبته لما بعده فالصلة واضحة والارتباط وثيق بتدبر ما بعده من آيات، إذ مازال الحديث متصلا -كما نرى- عن الصدقة، فقد عرض المشهد الأول أولئك الذين ينفقون أموالهم مرآة للناس ولتتضح الصورة ويتم المشهد يأتي السياق القرآني بما يقابله وهو مشهد أولئك الذين يبذلون المال -على

28 التفسير الكبير 53/7 بتصرف.
29 سورة البقرة 261-262.

حبه– لمن يستحقه رغبة منهم واعترافا بحق الفقراء فيه وأن ذلك واجب عليهم لكسب رضا الله وثوابه.

نعم أولئك الذين ستكون نتيجة بذلهم النماء والزيادة المقدرة منه سبحانه وتعالى – ثم تتوالى الصور بعد ذلك بين الترهيب والترغيب لإثارة المشاعر وتحريك الأنفس واستشعار القلوب القاسية للإنفاق والبذل والتفكر في الأسباب .... ونتائجها... ليختار العاقل لنفسه أفضل السبل وأكرمها ، ولتكون نهايته كريمة ومحمودة كما يتمنى[30] وليكون من أولئك الذين قال فيهم –سبحانه وتعالى–

(...فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).[31]

ج –العبرة منه:–

يأتي السياق القرآني كعادته بأقرب الصور وأكثرها تعبيرا وأدقها تصويرا، لينقل المعنى من الجمود إلى الحركة ومن العقلي إلى الحسي الملموس لتكون العبرة منه واضحة جلية تماما كوضوح المعنى المصور وظهوره.

وها هوا ذا ينقل لنا في هذا المثل صورة لعمل المانّ المؤذي ولعمل المنافق ، الذين يظن الناس أن لهما أعمال تحسب ، كما يرى التراب الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل ، لأنه لم يكن لوجه الله تعالى ولا رجاء في ثوابه ، كما أذهب الوابل ما كان على الحجر الأملس من تراب فإذا كانت هذه نهايته كان لا بد لمن يعقل هذه الصورة فإذا كانت هذه نهايته كان لابد لمن يعقل هذه الصورة أن يتأثر بها ويتقبل الأمر السماوي عن رضا ومحبة ، فإذا تقبله بذلك الرضا وتلك المحبة سعى كل السعي لإخفاء صدقته ومداراة عطائه لتكون له الثمرة المرجوة بعد ذلك حتى لا تكون أعماله يوم القيامة كتلك الصورة التي نقله لنا السياق القرآني في دقة ووضوح والتي لا يقبلها لعمله كل من تحلى بالإيمان أو نعمة العقل.

السلبية – إن لم يكن قد أوحى بها– في بلاغة وجمال ، ثم تأتي بعد ذلك جملة (يودٌ) وهو من الفعل (ودٌ) إذ قال ابن فارس في ذلك :–

(الواوُ والدّال كلمة تدل على المحبة . وددتُـه: أحببته)[32].

30 سورة البقرة من 265-273.
31 سورة البقرة 274.

وقال الرازي في تفسيره الكبير (الودّ هوا المحبة الكاملة)[33] ونقول هنا: إذ علمنا أن هذا هوا المعنى التي تحمل لفظة (يودّ) أدركنا مدى البلاغة القرآنية في استعمالها –هنا– بدلاً من جملة

(يريد) – مثلاً– لأنها تدل على نفي إمكان حصول هذا الشيء مطلقا لاستنكار حبه له[34] والاستفهام هنا للتبعيد والنفي والمعنى ما يودّ أحد ذلك.[35]

ثم نلاحظ كيف جاء السياق بجملة (يودُّ) ولم تأت جملة (يحب) مثلا مع إمكان مجيئها ولكن جملة (يودُّ) تعني حب الشيء مع تمني وقوعه[36] بينما لا نجد نفس المعنى في جملة (يحب) فضلا عن ما في لفظ الودّ من رقة وعذوبة واضحتين تؤديان إلى لمس المشاعر لمسا رقيقا ليناً، ترتاح إليه النفس ويطمئن به القلب مما يدفع المخاطب إلى الاستجابة والإذعان بلا تردد أو تقصير ثم جاء الخطاب بقوله تعالى (أَحَدُكُم).

قال أبو حيان (وأحد هنا ليس المختص بالنفي وشبهه والمعنى أيودُّ واحد منكم على طريق البدلية).[37]

ونرى هنا أن في استعمال لفظ (أحدكم) شيئا في المودة في الخطاب ونقصد في بهذا ذلك الهمس المحبب الذي ينفذ إلى قلب كل سامع لهذه الفظة لأنه يترك فيه شعورا أكيداً أنه المعنى بهذا الخطاب الذي يجب التفكر فيه وأخذ العبرة منه.

ويعلق ابن القيم على قوله تعالى (أَيَوَدُّ أَحَدُكُم) بقوله:–

(وقال تعالى : (أَيَوَدُّ أَحَدُكُم) بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام ، كما تقول أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول أيودون. وقوله:– (أَيَوَدُّ) أبلغ في الإنكار مما لو قيل أيود لأن محبة هذا الحال المذكور وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها).[38]

---

32 مقاييس اللغة "ودّ ".
33 التفسير الكبير 58/7.
34 التفسير الكبير 59/7. بتصرف.
35 البحر المحيط 313/2 بتصرف.
36 المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني "ودد".بتصرف.
37 البحر المحيط 213/2-214.
38 التفسير القيم 163.

ثم جاء قوله تعالى:-

(أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ[39] مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ).

(فذكر جَلَّ وعلاَ – أن هذا البستان من النخيل والأعناب والثمرات هو ذلك الشجر المعروف بفوائده العظيمة من خشبه وجريده وليفه وخوضه سائر ما يشتمل عليه لذا ذكر هنا اسم الشجر لتعدد فوائدها ، أما الأعناب فهي ثمر شجر الكرم وقد ذكر هنا باسم ثمره ولم تذكر شجرته لاقتصار فائدته على الثمر دون الشجر) [40]. كذلك قيل : إن النخيل والأعناب خصا بالذكر ، لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعا فمنها القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة، والحلو والحامض وتؤكلان رطبا ويابسا ومنافعها كثيرا جدا فذكرتا تخليا لهما على غيرهما.[41]

وقيل إن مجيء قوله : (من نخيل وأعناب) (من باب تثنية ذكر ما يقع الاهتمام به مرتين عموما وخصوصا ومثله " **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** " – إلا أنه في تلك الآية بدأ بالتعميم وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص)[42]

ثم جاء في الآية قوله **(تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)** فقيل إن الهاء في قوله **(تَحْتِهَا)** إما عائدة على الجنة التي يقصد بها البستان الملتف الأشجار[43] أو إذا أريد بالجنة الأرض التي فيها الشجر فلا بد من تقدير مضاف محذوف فيكون المقصود (من تحت أشجارها)[44].

ونرجح هنا الرواية الأولى، لعدم حاجتنا فيها إلى تقدير محذوف والجملة[45] (تجري من تحتها الأنهار) في محل رفع صفة للجنة أو حل من الجنة لأنها موصوفة.

ثم جاء قوله **(لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)**، فكرها هنا العام بعد الخاص والمراد بالثمرات هنا التكثير.

---

39 قرءها الحسين جنات بالجمع . فضلاً انظر البحر المحيط 313/2.
40 التفسير القيم 163.
41 نفسه 163، أيضا تفسير النسفي 134/1. بتصرف
42 حاشية السيد شريف على بن محمد بن علي السيد زين الدين الجرجاني على الكشاف 395/1.
43 فتح القدير 288/1 بتصرف.
44 فتح القدير 288/1 كذلك الكشاف 396/1 بتصرف
45 إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم 260/1 بتصرف.

وذهب الزمخشري إلى أنه يجوز أن يكون المقصود بالثمرات في هذا الموضوع المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله تعالى :-

(**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ**) بعد قوله تعالى :(**جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ**).[46]

ونقف هنا لنتأمل هذه الصفات الثلاث المذكورة في الآية الكريمة وهي:-

كون الجنة مشتملة على النخيل والأعناب وتجري من تحتها الأنهار ثم له فيها من الثمرات.

لاشك أنه إبداع فذّ في رسم الصورة المتكاملة للجنة الحسناء في ألفاظ موحية وعبارات مؤثرة تنقل المعنى والمشد في جمال وجلال لا يليقان بأسلوب القرآن المتميز.

وبعد ... تلك هي وقف أمام الجانب الجميل من هذا المثل الكريم، ولكن كيف استطاعت هذه الآية نفسا أن تنقل لنا أيضا بألفاظها وعبارتها الجانب الآخر من هذا المثل؟! .

يبدأ هذا المشهد بقوله تعالى :-

(وأَصَابَه الكِبَرُ) - الواو هنا- كما يرى أبو حيان - للحال على تقدير "قد" أي وقد

أصابه الكِبَرُ كقوله تعالى :-

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ).[47]

وجاء في الكشاف أن العطف قد يكون على المعنى كأنه قيل:-

أيَودُّ أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر.

وينفي أبو حيان ذلك لأنه يرى أنه لا أحد يَوَدُّ الإصابة بالكبر، لذا فقد وجه ذلك الرأي توجيها جميلا إذ قال :- (لكن يحمل قول الزمخشري على أنه لما كان أيود استفهاما معناه الإنكار جعل متعلق الودادة الجميع بين الشيئين وهما كون جنة له وإصابة الكبر إياه إلا أن كل واحد منهما يكون مودوداً على إنفراده وإنما أنكر ودادة الجميع بينها)[48] وقله أصابه الكبر أبلغ من القول (كبر)[49] ونرى بلاغة واضحة في قوله (أصابه الكبر) لأنه يشعرنا

46 سورة الكهف 32-34.
47 سورة البقرة 28، البحر المحيط 314/2 بتصرف.
48 البحر المحيط 314/2.
49 نفسه نفس الصفحة، كذلك روح المعاني 37/3.

بمدى وقع الشيخوخة وكبر السن على صاحبها أنهما قد أصاباه فعلاً لذا كان ذلك القول " أصابه الكبر" أبلغنا من قولنا (كَبُر) –كما بينا– ذلك .

ونعود – مرة أخرى– إلى إيحاء هذه العبارة بما تحمله من لفظين معبرين (الإصابة) و (الكِبَرُ) وكما قلنا إنها بداية المشهد التصويري الآخر في المثل.

بعد لفظه وعبارة تلو أخرى حتى تكتمل الصورة وتصل مع اكتمالها إلى الغاية التي قيل لأجلها المثل وهي أخذ العبرة و العظة منه وهي غاية البلاغة القرآنية ومقصدها الأسس.

لنتأمل هنا المرحلة الثانية من المشهد التصويري المؤثر وهو قوله تعالى :–

(وله ذرية ضعفاء).[50] يرى أبو حيان أن المقصود بالذرية الضعفاء هنا هم المحاويج.[51]

كما يرى الألوسي أن الواو في قوله (وله ذرية ضعفاء) في موضح الحال من الضمير

في (أصابه) والتقدير أي:– أصابه الكبر والحال أن له صبيه ضعفاء لا يقدرون على الكسب وترتيب معاشه ومعاشهم وترك التعبير بصفار مع مقابلته للفظ الكبير لأن التعبير بضعفاء هنا أنسب.[52]

50 وقري (ضعاف) فضلا راجع البحر المحيط 314/2.
51 البحر المحيط 315/2 بتصرف.
52 روح المعاني 37/3 بتصرف.